

ذكرى زوجة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

حدثت صاحبي قال :

عشر سنين سويا هي مدى العيش بيني وبينها
هي فطرة حياتها الجديدة اجتازتها بحيلة إلى القبر
كانت تملأ بيتي نوراً ، ونفسي حبوراً ؛ بدلتني بالوحشة
إنساً ، وبالوحدة جمعاً . هؤلاء أولادها نجوم سماء أرسلتها العناية
الالهية لتكون معجزة الله في نظام الأسرة ، وفي بث الأمل
بالاسم ، وفي سعادة الآباء والأمهات ، ثم لم يمتنعها الدهر بهم
إلا قايلاً ، واستودعني صفاراً كأفراخ العاير ، وذهبت في
عالم السماء

دعني يا أخي أخفف من برحاء حزني بقطرات من الدمع
هي كل ما أملك عندما يفلى صرّاج قلبي بكراها
دع دماء قلبي تنبخر فتستحيل دموعاً ، في انبثاتها هدوء
أرعتي وأشجاني ، فقد انصبت أحزان الناس جميعاً في مصيقتي ،
فما أطبق لها حلاً

ألمأ رأيت المحزونين يتمزقون بي ، وينسون مصائبهم إذا
رأوني ، فيرون لبلاوي ، ويعسجون بتعازيبهم قيفض عيني التي
هي ماضي دموعهم على موتاهم ؟

يا لأيتها الحلوة ، وسريرتها الطاهرة !!

أرأيت إلى البحر الصافي الساكن الذي لا يدُس في قرارته
شيئاً !! أرأيت إلى الدماء الزرقاء الجيلة تزهى بالجود الرضاء ،
هي رمز السرور والطمانينة !! ذلك هو قلبها : إخلاص
وصدق ، وأدب وحياء ، وكل ما ترنّج في الزوجة الكاملة من
سمو ووقاء

وكان القدر أراد أن يسقيني كؤوس الصداقة مُترعة ثم
يسلبنيها وشيكاً ليطول حزني ، وتدمي إلى الأبد جراح قلبي ، فأنا
منها في همٍّ مقعند مقبم

قلت له : هوّن عليك يا أخي ، فما لما قضى الله حيلة ،
وحبك ما قدمت يدك ، وماقت به نحوها من تمرّض ، فقد
كانت في أغلب سنينها معك بين الموت والحياة ، نسي سمي

وهناك الكثير منها مما لا يتسع للقام لذكره . ولا تقتصر هذه
المواطن الخفية الفاضلة على حوادث التاريخ الاسلامي ؛ ولكنها
تمثل في تواريخ معظم الأمم والمصور ؛ فما من عصر إلا وله
أساطيره ، وما من أمة إلا ولها أساطيرها القومية ، وقد كانت
هذه الأساطير وهذه المواطن الخفية تمت في الغالب بقصة إلى الدين
أو إلى الاطماع والشاريع السياسية ، وكان يستغلها دائماً دعاة مهرة
ومغامرون لهم من الجراءة والافدام ، ما يكفل تحقيق مشاريعهم ؛
وكان السلطان الروحي أو السياسي دائماً مطمح أولئك الدعاة
أو الفاعلين ؛ وفي أحوال كثيرة نرى الأسطورة الدينية
أو الدعوة الخفية تنتهي بانفجار تنقيب انقلابات سياسية واجتماعية
خطيرة ، وفي بعض الأحيان نرى الأسطورة أو الدعوة تقضي
إلى قيام دولة جديدة أو مذهب ديني أو سياسة جديدة

ولا ريب أن هذه الأساطير والدعوات والحوادث الخفية
تبدو في عصرنا حديث خرافة ، ومن المستحيل أن تشق طريقها
بعد في أمة متمدنة أو مجتمع مستنير . ولكن يجب أن نذكر
فوارق العصر والظروف ، وأن نحكم على هذه الظواهر الغريبة
بمقياس العصر الذي حدثت فيه . على أننا نجد في التاريخ الحديث ،
وفي المجتمعات الحديثة المتمدنة أيضاً أمثلة مذهشة من هذه
الأساطير والظواهر الخفية تشق طريقها إلى أرق المجتمعات
وتثير الدهشة والروع في نفوس الكبراء فضلاً عن الكافة ؛
وفي القرن الثامن عشر ظهر في ألمانيا والنمسا وفرنسا عدة من
الدعاة والمفكرين السريين مثل يعقوب فرنك (أو الكونت
أوفناخ) والدكتور فوك ، ويوسف بلابو (أو الكونت
كاجليوسترو) ، والكونت سان جرمان وغيرهم ، وحاجوا
المجتمعات الأوروبية الرفيعة ، وأثارت مضاعفهم ودعائهم في الملود
وعلم الغيب ، ومزارة السحر ، والحوارق ، كثيراً من القهشة
والروع ؛ بيد أن هؤلاء المفكرين الدعاة لم يحاولوا أكثر من
تحقيق مطامع عملية وشخصية ؛ ذلك أن العصر الذي كانت فيه
جراحة الدعاة تتجه إلى انشاء المذاهب الدينية أو الدول السياسية ،
كان قد انتهى منذ بعيد ، ولم يبق أمام الأواخر من الدعاة
والشعوذين إلا أن يميلوا في ميدان متواضع جداً لتحقيق
المآرب والأهواء الشخصية

(تم البحث)

محمد هب الله ههنا

طول النهار ؟ فإذا نزلت عند رأبها انتابني الفزع في وهن الليل ، فأراها جالسة مفتوحة الميئين تنتظر قضاء الله فيها ، وقد تسمع المؤذن في الفجر يشق الغصاء بكلمة الحق : « الله أكبر » في سكون الليل ومدونه ، فتضرع اليه أن يحكم فيها بما يراه خيراً لها ، ثم يدعو القدي كتب لها قصر العمر أن يكتب لي طول العمر جزاء ما أسديت اليها في أمراضها المتطاولة من برٍّ وجهود ، فأسى لهذا القول ، وأذكر الأمل في الشفاء ، فتستبد بحقيق ما أمأت وتقول : أيقدر لي الشفاء فأنقى عمراً جديداً في شكر معروفك ؟ !

ثم اشتدت بها الملة ، ورحت بها الأوصاب . ومن هجائب القدر أنت تكلفني وزارة المعارف متدارة المدينة لأعمل في الامتحانات في مدينة أخرى ، وليس من شرعة وزارة المعارف أن ترحم مثل الظروف المحيطة بي ، أو تقبل عذري إلا إذا كنت أنا مدنفاً عيلاً ، ويشهد جماعة من الأطباء جبهه أيمانهم أني لا أطيق السفر ، ولا أقوى على مكابدة الأعمال

سافرت متعب الفكر ، مضطرب النفس ، وبين جنبي من الهم ما لو كان بالجبال لاندكت ، وبالجوار ما سمعت لرنات أمواجها زئيراً ، ولا لشموخ أنفها غزاة وزفيراً

وقبل سفرى تقدمت إلى أبحالي أن يرسلوني يومياً بحالتها ، وأسررت إلى بعض أسدقائي إن حلّ القدر أن يبادر باستقداي يرقياً ، ومن عجب أن ترى الرسائل كل يوم بأن ممجزة عيسى الباهرة ظهرت في زوجي ، وأن المرض كادت تزول آثاره ، فأحدث ذلك في نفسي حالة بين الشك واليقين . أذكر البرء فأقول : « آمنت بالله » ، « يحبي النظام وهي رميم » ، هاهوذا مجمودي الطويل تنسوج بالنجاح ، ونافله إن فرح برؤيتها - أليمة لينسني كل عذاب تحملته مبارأ عتسباً ، ثم تخم على سحب مظلمة تقرب من نفسي شيئاً فشيئاً فأفجر باكياً في حجرني بالفندق بعد أن أحكم رناج الباب ، وأشتق يلسم المزون ؛ هي تلك القطرات

يالله للإنسان لو لم تكن دموع عينيه أنراه ينشق فتطير أجزاء قلبه ورأسه قلدة في الشرق وقلدة في المغرب ثم يتناثر جسمه إرباً إرباً . ثم تعود إلى قوة نفسي فأحس حرارة اليقين في صدري ، ويشع أمام مني ضياء الأمل فأنهش وأبني تصور

المُجد لتدفع القدر عنها ، فلم تدع طليماً إلا استشرته ، ولا سيدية إلا أقرعت فيها كنوز حياتك

كنت في حياتها في فكر محض ، وقلق مستديم ، وليس من الانصاف لنفسك ولا لأولادك أن تظل هكذا شقياً بماتها .. لما استأذن حديثي على سمعه حتى ظل هنيهة مطرقاً مفكراً ، وكان أطياب الماضي تذهب وتجي في رأسه ، فلا يستطيع لها دفماً ، وكان لوحة خيال تعرض حوادث حياته مشهداً مشهداً ، وبعد أن تنبه إلى قال :

لست أنسى طول حياتي رزاة عقلها ، واتزان كلامها ، وجبل وقاها ؛ وقصدها في الأمور كلها ، حتى لقد حسبت أن الله مازها بذلك من دون النساء جميعاً ؛ وأن شئثل بنات حواء اجتمعت لفيها ثم سارت وقفاً عليها . أرأيت إلى قطرات من المطر تتعاب من أفواه السحاب ، ثم يؤلف الله منها ماء دوا يحظى به فرد واحد من بني الانسان ؟ تلك هي فضائلها . فان يحي البر والمعروف والوفاء من نفوس الناس جميعاً لمن تيزج ذهني ذكراها ، وهكذا تمر الأيام وروحها ماثلة أمامي ، وما زرها مشرقة اشراق الشمس ؛ فهي باقية في معاني الكمال الانساني - ، باقية في هؤلاء الصبية كلما خطرُوا أمام عيني ، فهم بضمة منها ، وأمثالها الدرة على نفسي

كان داء قلبها مبعث آلامها ، فابتدأت لحظة في القيام بما تفرضه شركة الحياة بيني وبينها ، ولأنني أعلم أن صخرة عاتية تنتظرني بعد أن أنقض يدي من تراب قبرها ، فتتحطم آمالي تحطماً ، وتفرق أجزاء نفسي شعاعاً

وكم كنت أود أن لم يكتب الله لها السلامة أن تعيش هكذا في سريرها تنم برؤية أولادها ، وأنا كل يوم أزعج اليها كواذب الآمال في برئها ، وأزور مع الطبيب في الطريق كلاماً نقوله عند لغائها ، والطبيب يشفق علي ويقول : حسبك فقد أبايت ، والطب ألقى سلاحه معترفاً بالمجز عند باب حجرتها ؛ وأما أجيته : لا عليك أن تكرر الزيادة ، وأن تدرع الأرض جبيته وذهوباً ، وأجرك موفور ، وعذرك في عدم الشفاء مذكور ، رجاء أن تدخل شيئاً من برد الطمأنينة على قلبها

وقد والله كانت راضية بالقدر خير وشره ، وماذاقت طم النوم أشهراً إلا مثل حسو الطير ماء التمام ، وكانت لا تطيب نفسها أن أسهر بجانها حتى أقوى على أسباب العيش

الآمال من جديد بعد أن ضمضتني الأسقام ، وزعزعتني الوباس
والأوهام . وعدت من السفر ودخلت عليها مسلماً لأبدل بالك
اليقين ، فرأيته جالسة في سريرها وقد أمت منها معالم الحياة
إلا عيوناً برآفة وروحاً رضية تتحدث حديث الأحياء وجسمها
في عالم الأموات ، فعرفت زئف أحلامي التي نعمت بها مدة غيبيتي
عنها ، فسألت في شأن هذه الرسائل فاعتذرت إلي بأنها شامت أن
أفرغ لعملي ، وحسبي جهود الامتحان من آلام التذكر ، فحاطت
الرسائل بما يخفف عني ، ويحيي بيت الآمال من نفسي ، فأكبرت
هذه الرواة وذلك العقل الكبير من حيلة ميسرة تنتظر أياماً
أو ساعات لتودع الحياة الدنيا وقالت لي : إنها ابتليت إلى الله
ألا يحل بها رب الموتون حتى أعود من سفرى ، وهما هي ذى مشيئة
الله كانت رحمة بها كريمة عليها ، وأعلتني أن دلائل الموت
تقرب منها ففاضت شئوني . أما هي فكانت الثقة بالله عزلاً
جوانب نفسها والتسليم للقادر ما يلج به لسانها في كل حين
فكانت هادئة رزينة مكتملة العقل كعادتها

ثم هدت إلى المنزل في الظهيرة وقارودة الدواء الأخيرة
في يدي فنظرت إليها كما ينظر الموتور إلى وآره فأجفلت منها
وكأها نذير الموت جاء يُبجلها فقالت : في هذه الزجاجة بقية
عمري فأبدوها عني ولا تقضوا خناسها : أرحموني فقد تمزق
جسمي بالحقن فلم يسلم جزء فيه من طمناتها ، وتقطعت أحشائي
بالمقابر وأنا صابرة ، فكلم من طيب كشف عن جسمي ، وكلم من
دواء شقت مرادتي ، أين أولادي ؟ ليمنعوا مثل
الحلقة حولي ، وأخذت تقبل هذا ، وتمسح بيدها رأس ذلك ، وتبلل
بالدموع وجوههم جميعاً ، كل ذلك وهم في غفلة ساهون يفرحون
وعرّحون إلا أكرم فكانت دموعه تساق دموع أمه فيكيان
معا . وبعد قليل استنجلت بمجربات من الزجاجة فشربتها
فنامت ثم استيقظت بعد نصف ساعة وكأما نشاط من عقال ،
فاستنافت وعاد إليها برد الأمل ، وما رأيته في أوقات مرضها
أسعد حالاً وأعظم سروراً من تلك الساعة ، وقلت لها : ألم أقل
لك كثيراً إن الانسان قد يعمل به المرض إلى الناية ثم يشفى ، وأنا
أعرف كثيراً من الناس بهذه المثابة

وما انتصف الليل أو كاد حتى ذلزلت الأرض زلزالها ۱ ۱

موقف الموت الرهيب ۱ ۱ فرأيت نفسي في مأزق حرج لم أشهده
طول حياتي ، إنه رسول الموت جاء ليحسم الأمر بمد طول جدال
جاء « لقطع كهيئة قول كل خطيب »

ولتخط أم أولادي الرجال بمد طول تهجير فقد أضناها
السرى وبرمت بالحياة الدنيا . رأيته تسلم الروح إلى بارئها
في لحظة وانتباه ونفسها معلقة بأولادها وكأها مخاطب رسول
الموت : قف قليلاً لأشهد الكون أني ذهبت إلى الله وخلفت
في الدنيا أطمالاً هم مهجة قلبي وحشاشة نفسي . قف قليلاً
لأودعهم الوداع الأخير

ثم مسحت آلام المرض الطويل وغسلت كل أسقامها
البرحة بكلمة إن أنساها طول حياتي كانت مفتاح الآخرة
« دعوني أستريح . أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله »
ثم صارت جنة هامة

سهرت ليلة من ليالي العمر كسدت سواد شمري ، وكما
دقت الساعة دقت معها شعرة من رأسي لنظن استحالة السواد
بباضاً حتى أدركني الصباح

أما غريب في هذه المدينة التي صارت مثوى زوجي ، ومرقد جزء
من أجزاء نفسي ، وقد غادرت أمي في العاشرة من عمري لأطوف
في نواحي الأرض في سبيل المعبر الذي بمض عواقبه اليوم
ولا والله ما شمرت بلبق الشربة يحرق كبدي إلا في هذا
اليوم المعصيب .

ذهبت مبكراً إلى منزل الصديق الصدوق الأستاذ « مصطفي
صادق الرافعي » أحسن الله جزاءه فأيقظته من النوم فعرف
سر البكور قبل أن يلقاني وأن قضاء الله قد حتم ، فجاءني منزعجاً
فقلت له : « أي مقبرة آل الرافعي مكان للقرية ؟ »

ومشينا والنمش يتهاوى أمامنا ، فرأيت بيني سياج حياتي
يتحطم ، وضياء بيتي ينطفيء ، وزوجي في ظلمات القبور

فيا قبر رفيقاً بها فقد كانت عزيزة علينا ۱ ۱ وبأحجاره كوني
على جنبها أوراق الحبة

متن من مخطوطة

(القاهرة)